دراسات ما قبل التاريخ في وادي النيل (السودان ومصر): ملاحظات حول المنهج والنظرية

يوسف مختار الأمين

ملخّص: تتناول هذه الورقة تاريخ أبحاث ما قبل التاريخ في السودان ومصر، منذ بداية القرن الميلادي الماضي، من خلال استعراض نقدي للأعمال الآثارية المهمة، التي أنجزت. وذلك في محاولة لتقصي طبيعة هذه الدراسات من عدة جوانب، منها الأساليب المنهجية المتبعة، والأفكار التي شكلت الإطار النظري لها. وفي إطار التحليل النظري للتيارات الفكرية والمنهجية، التي انتظمت علم الآثار عالمياً، يحاول البحث رصد اتجاهات مماثلة لها في دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل، ومدى اتصالها بتلك التيارات. وقد اقترح الباحث ثلاث مراحل لتطور الأبحاث في هذه المنطقة، لكل واحدة منها سماتها المنهجية، ومنطلقاتها الفكرية. وقد اتضح أن هذه التوجهات المرحلية، في أبحاث ماقبل التاريخ في السودان ومصر، تقترب من التيارات المنهجية والفكرية العالمية أحياناً، وتختلف عنها أحياناً أخرى. ومن جهة أخرى، فإن سماتها الحالية لاتؤهلها بأن توصف "بالنماذج الإرشادية"، كما حددها فلاسفة العلم. كما ناقش الباحث أيضاً الصعوبات، التي تواجه الباحثين في المنطقة وإمكانية تجاوزها.

Abstract. *Surveying the most important archaeological research carried out by foreign expeditions on prehistoric Sudan and Egypt since the beginning of the last century, this paper presents a critical assessment of the methodological and theoretical orientations of that research. In doing so, the study seeks to establish trends in research on prehistoric Nile Valley and evaluate them in the light of the major intellectual developments in modern archaeology worldwide. The paper identifies three stages of development in the archaeological research in this area; each has its own methodological characteristics and ideological underpinnings. The trends so described, sometimes approximate universally recognized methodological and theoretical trends, while at others they branch off. Still these stages of developments fall short of constituting sustained paradigms. The paper also addresses the difficulties researchers may face in the area and suggests ways of overcoming them.*

تتناول هذه الورقة تاريخ البحث الآثاري، الخاص بفترة ماقبل التاريخ في وادي النيل، من بداياته الفعلية المتمثلة في المسح الميداني والتنقيب، منذ أوائل القرن الماضي. ومن خلال السرد التاريخي لهذا النشاط العلمي، يحاول الباحث رصد السمات المنهجية والفكرية، التي انتظمت الأعمال البحثية الرئيسية، التي أنجزت. والهدف الأساس من ذلك، هو النظر في تشكل المناخ الفكري، الذي تجرى في إطاره وأجوائه البحوث، حيث تتحدد ملامح مستقبلها. ومن المعروف صعوبة معرفة ملامح البحث الآثاري عموماً، كغيره من العلوم الإنسانية، إلابتقصي منابع التوجهات وأصولها، التي انطوى عليها ذلك النشاط العلمي. وكما سيتضح في ثنايا هذه الورقة، فإن دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل مرت بمراحل مختلفة، يتفاوت فيها الاهتمام بهذه الفترة من التاريخ البشري في المنطقة، صعوداً وهبوطاً، وذلك لأسباب مختلفة ففي النصف الأول من القرن الماضي، كان يُنظر لوادي النيل كمنطقة بعيدة عن بؤرة التطور الثقافي في ما قبل التاريخ، ليس لها مساهمات تذكر في مجرى الأحداث الحضارية المهمة.

العدد الثالث شوال ١٤٢١هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠١م
(ص ص ٧ - ٢٨) ردمد: ٨٩٤٧ - ١٣١٩

ولم يحدث تغيير يذكر في مثل هذه الأفكار، إلا خلال المرحلة الرئيسية الثانية من تاريخ الأبحاث الآثارية في المنطقة، التي بدأت بحملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩ - ١٩٦٥م). لقد كان لهذه الحملة العلمية بالغ الأثر في تاريخ البحث الآثاري عموماً في وادي النيل. فقد كشفت عن أهمية المنطقة حضارياً، وكانت نتائجها نقطة مفارقة في تاريخ البحث الآثاري في فترة العصور الحجرية، في كل من مصر والسودان. وبفضل هذه الأبحاث، صار ينظر إلى منطقة شمال شرق أفريقيا على أنها مركز إشعاع حضاري، خاصة بعد أن تسارعت وتيرة الأبحاث الميدانية المكثفة، التي قامت بها مجموعات من العلماء من مناطق مختلفة من العالم، كانت نتائجها -هي الأخرى- ذات دلالات علمية عميقة. ويعد وادي النيل (السودان ومصر) اليوم، بفضل هذه المجهودات العلمية، من أكثر أودية الأنهار في العالم حظاً في البحث والتنقيب، في آثار العصور الحجرية. ويتضح ذلك من وفرة الأدبيات المنشورة، من مجلدات وكتب وتقارير ودوريات متخصصة ووثائق مؤتمرات منتظمة، حول فترة ماقبل التاريخ. وقد أصبح من الضروري الآن البحث في طبيعة هذه الدراسات، والتدقيق في مناهجها وأطرها الفكرية. فمما لا شك فيه أن كل إنتاج أكاديمي، يعتمد على مادة امبريقية أو غيرها، لابد له من منهج لإجراء الدراسة، وكذلك فكرة أو نظرية يستهدي بها الباحث، ويفسر من خلالها الظواهر الثقافية. إن تتبع هذه المناهج والنظريات يعني ببساطة، إننا نبحث في تاريخ ذلك العلم. فما معنى تاريخ الأبحاث في مجال علم الآثار وأهميته إذن؟

أهمية تاريخ البحث الآثاري :

هناك شبه اتفاق بين علماء الإنسانيات، على ضرورة رصد تاريخ النشاط العلمي وتحليله في كل فرع من فروع العلوم الإنسانية،من منطلق أهميته في معرفة تفاصيل واقع النشاط الأكاديمي فيه.

هذا الواقع ينعكس في النظريات والمناهج، التي يتبناها الوسط العلمي، ومن ثم تتحكم في إنتاجه لفترة من الزمن. وبتتبعها يمكن تخطيط البحث المستقبلي، بطريقة تؤمن نجاحاته في الأهداف والتصورات، التي يضعها العلماء. ففي علم الآثار مثلاً، يتناول مؤرخو العلم النشاط البحثي الميداني من منظور عالمي، ويسجلون أهم الابتكارات المنهجية والنظرية، التي أدت إلى تطور العلم ،وترسيخ مبادئه الأساسية. وينظر هؤلاء إلى الأمر من عدة زوايا، مثل : رصد النظريات والأفكار، التي تميز كل مرحلة من مراحل تطور العلم وكيف ينظر العلماء إلى المادة الأثرية موضوع دراستهم، وامكانية الاستفادة منها في معرفة التاريخ الإنساني.

ويهتم العلماء بتحليل ظواهر المناخ الفكري السائد في المجتمع، عند إجراء البحث، لأنه من خلال ذلك المناخ يتشكل نموذج الدراسة من ناحية أهدافها، والمناهج المتبعة في تحقيق تلك الأهداف. فالتأويل - عادة - يخضع لقناعات واعتقادات فكرية وعملية، تتشكل في الإطار الفكري السائد في وقت إجراء البحوث. وكما يقول الفيلسوف والمؤرخ الآثاري كولنغوود، فإنه "لايمكن دراسة أي مشكلة تاريخية، دون دراسة تاريخ الأفكار التي وردت حولها ..."ويقول أيضاً : أن كل مشكلة آثارية تنبع من واقع حياتي .. وأننا ندرس التاريخ من أجل أن نرى بوضوح الموقف، الذي نتصرف فيه الآن "(1) : Trigger 1989) (2 . فإذا ألقيت نظرة سريعة على تاريخ علم الآثار الحديث تتضح مباشرة العلاقة بينه، كممارسة أكاديمية، وبين الأيدولوجيا والسلطة السائدة في المجتمع، الذي تنتج فيه المعرفة الآثارية.

وبما أن الهدف الأساسي لعلم الآثار كان - ومايزال- كتابة تاريخ الثقافة الإنسانية، وتفسير عمليات التطور والتغير فيه، فمن البدهي أن تستغل تلك المعرفة بتفاصيل التاريخ الثقافي في تحقيق بعض الأهداف الآنية للمجتمعات. ويكون استغلال هذه المعرفة لخدمة أغراض متعددة، يمكن تلخيصها في دورين : أحدهما إيجابي لمصلحة العامة، والآخر

لمصلحة فئات محدودة في المجتمع. فعلم الآثار يؤسس، مع تخصصات أخرى المعرفة الخاصة بتاريخ الهويات الثقافية ، وهي عادة ماتكون نقطة الانطلاق في تكوين الشرعية، التي تقوم عليها الأمة والسلطة ، التي تدير شؤونها. واستعادة الماضي، أي التاريخ الثقافي، والاستعانة به في تشكيل الحاضر، يتوقف بالدرجة الأولى على الأيدولوجيا السائدة، وعلى قدرة القوى الاجتماعية التي تتبناها. وعلى سبيل المثال ، يمكن أن نذكر مافعله الآثاريون في إسرائيل ، من إنتاج معرفة تؤكد – في نظرهم- أحقية المستوطنين اليهود في أرض الميعاد ، وإحياء العصبية اليهودية، ومن ثم إثبات الهوية الثقافية ، كما وردت في القصص التوراتي. وتمثل مواقع الآثار الكبيرة بالنسبة لهم قوة رمزية ساعدت في التوحد لتأسيس الدولة الوطنية، وأصبحت جزءاً مهماً في الفضاء الاجتماعي والسياسي والفكري الإسرائيلي. كذلك استفادت الأقليات ، من السكان المحليين في أمريكا واستراليا، من المعرفة الآثارية، للمطالبة بحقوقها التاريخية والثقافية ، واستعادة أمجادها القديمة.

وفي مناقشته للهوية الوطنية المصرية، لاحظ فكري حسن رسوخ التراث العربي الإسلامي، وما وفد من أوروبا حديثاً، في أذهان الناس، مما يشكل قطيعة بين الحاضر والماضي القديم ، المتمثل في الحضارة الفرعونية، على الرغم من أن الأخير يظل ورقة سياسية مهمة. وقد كان التاريخ الفرعوني مصدر قوة واعتزاز لدى المصريين، أيام مقاومة الاستعمار، ويظهر ذلك في خطب السياسيين ، وما كتبه مثقفو الطبقة الوسطى عن الهوية المصرية. وقد استدعى قادة ثورة ١٩١٩م هذا التاريخ، ومجدوا ماضي الأمة، التي كانوا يدعونها للنهضة. وقد كتب عدد من مشاهير الأدباء أعمالاً روائية مهمة، تستمد رموزها من ذلك التاريخ القديم. ولم يتراجع ذلك الاهتمام، إلا بعد نمو التيار القومي الحديث في الخمسينات من القرن الماضي (Hassan 1998a: 207) .

هذه أمثلة محدودة ، لعلاقة علم الآثار بالتيارات السياسية والفكرية في المجتمعات المعاصرة. إن البحث في تاريخ النشاط الآثاري في أي بلد ، لابد أن يكشف شيئاً عن مثل تلك العلاقة ، أو غيرها. ووفقاً لهذا الاتجاه، يبرز على السطح سؤال يتعلق بطبيعة المراحل، التي مرَّ بها علم الآثار، من ناحية مناهجه والأفكار، التي تؤطر أهدافه. فعلى سبيل المثال : هل هناك من رابط بين مناهج البحث الآثاري المطبقة ونظرياته ، على المستوى العالمي ؟ وهل يتخذ علم الآثار مرجعيته النظرية والمنهجية من العلوم الطبيعية والإنسانية الأخرى ، في كل مرة يظهر فيها تحول أو نقلة في تلك المعارف ، أم يبنى ذلك تدريجياً وبصفة تراكمية ؟ إن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تحيل إلى النظر في كتابات المتخصصين في تاريخ علم الآثار، الذين حاولوا رصد التيارات المنهجية المتعاقبة في العالم ، خاصة أوروبا وأمريكا على مدى مئتي سنة من العمل الآثاري (٢) .

وقد تأثر الباحثون في تاريخ علم الآثار بآراء فلاسفة العلوم ، الذين طرقوا –منذ أوائل القرن الماضي – موضوع ميكانزمات "آليات" حركة إنتاج المعرفة العلمية ، وأشكال وصيغ التقدم في العلوم . وقد ظهرت تيارات نظرية متنوعة، حول دراسة تطور العلم في إطاره التاريخي ، والثقافي والاجتماعي. يربط بينها فكرة التطور العلمي عن طريق تراكم التجارب . وانتقل هذا المفهوم إلى العلوم الاجتماعية، ومن بينها علم الآثار ، الذي تعود دارسو تاريخه على تفضيل فكرة التطور التدريجي واقتباس المناهج والنظريات، من مختلف ضروب المعرفة خلال مراحل تطورها المختلفة. ولم يهتم علماء الآثار، في واقع الأمر ، ولفترة طويلة ، بتطبيق نظريات صارمة في أعمالهم. وفي هذه المرحلة من تاريخ علم الآثار، تمكن العلماء من تثبيت المبادئ والأهداف الرئيسة لعلمهم، وحددوا بشكل عام كيفية تحقيقها. يبدأ ذلك من إجراء العمل الميداني، ودراسة المواد الأثرية المكتشفة وتحليلها ، معتمدين في ذلك على ماتقدمه العلوم الاجتماعية والعلمية ذات الصلة. وقد كانت الأداة

المنهجية الأساسية عند الآثاريين هي التصنيف، بطرائقه المختلفة التي بواسطتها يرصد الباحث أوجه الشبه والاختلاف بين المعثورات ، أو الظواهر الثقافية، وذلك بحصر السمات التقنية والشكلية المشتركة بينها. فالسمات المشتركة تؤخذ كمؤشر للإنتماء، إلى مجموعة بشرية ذات خصائص مشتركة. وقد عرف هذا الأمر آنذاك بما أطلق عليه "الثقافةالآثارية". وهي تعني ببساطة ذلك التاريخ الثقافي، الذي اعتمد في بنائه ومعرفته على الأسلوب الآثاري المذكور. لأن الهم الأساسي كان معرفة التاريخ الثقافي، ووضعه في جدول زمني يسمح بمقارنته مع غيره، من المناطق أو الثقافات المجاورة. وكانت المجاميع الأثرية المتشابهة تمثل لهذا الاتجاه منتجات مادية لمجموعة من الناس ، يشترك أفرادها في صفات ثقافية ، ومن ثم توصف بأنها مجموعات إثنية. وكان النموذج النظري، الذي وجد رواجاً في هذه المرحلة، هو مايسمى "بالتاريخية الثقافية"، حيث ينصب الاهتمام على رصد مواصفات الثقافة المعنية ، وتحديد خطها التطوري والمؤثرات التي تتدخل في عمليات التغير والتطور فيه (Trigger 1989:206,448) .

وقد كان للنظرية التطورية، المعروفة في العلوم الطبيعية ، تأثير كبير على هذا الاتجاه ، على الرغم من التعديلات التي أدخلت عليها، عند استصحابها في تفسير تطور الثقافة؛ خاصة أن اهتمامات علماء الآثار في هذه المرحلة كانت تتكيف مع ماهو ذائع من أفكار ومناهج علمية . وكانت هناك اتجاهات أو مدارس ، تركز بصفة رئيسة على أحد الجوانب الاقتصادية أو الفكرية أو البيئية، باعتباره يمثل العنصر الأساس في تطور المجتمعات القديمة (Ibid: 247-259) . ولكن لم توجد حتى الآن نظرية واحدة، تقيد المنحى العلمي الفلسفي في النشاط الآثاري . فالسمة العامة هي أن علم الآثار ظل انتقائياً في الجانب النظري ، إذا يأخذ الباحث مايراه نظرية مناسبة للحالة قيد الدراسة ، ويتخلى عنها في حالة أخرى.

وفي مرحلة التيار الحديث في علم الآثار ، تعارف مؤرخو العلم على إطلاق مسمى "علم الاثار الحديث". على تلك التحولات المهمة، البالغة التأثير، في العمل الاثاري، من ناحية المنهج والنظرية ، التي حدثت في الستينات من القرن الماضي. وقد بدأت هذه الحركة كمراجعة فكرية ونقدية ، لأهداف علم الآثار المعهودة ، والطريقة التي تعود علماء الآثار على اتباعها ، في تحقيق تلك الأهداف. ولايود البحث أن يتحدث عن ذلك التحول المنهجي والنظري بالتفصيل هنا ، إذ يكفي أن يُذكر أن الحركة الجديدة توخت الاستفادة من كل منجزات العلوم الطبيعية الحديثة ، من وسائل للتأريخ، ومناهج لتحليل المواد العضوية والبيئية .. الخ. إضافة إلى اعتماد الفلسفة والمنطق في بناء الفرضيات واختبارها ، من أجل الوصول إلى استنتاجات معرفتها مطلوبة من المادة الأثرية.

وقد هدف علم الآثار الحديث، إلى جعل الممارسة الأكاديمية علمية ، قدر ما تعني تلك الكلمة من شروط، في استخدام الفروض النظرية واختبارها بطرق علمية، بهدف الوصول إلى أحكام عامة عن السلوك البشري في الماضي. كذلك بدأ الاهتمام الواضح في البحث الآثاري، بمراحل التغير الثقافي ، والعوامل التي تنظم حركة الثقافة وخط سيرها دون الاكتفاء بالوصف الذي هيمن على كل الأعمال الآثارية السابقة، وقد ظهر هذا التيار في وقت شهد تطورات عميقة في شتى ضروب المعرفة العلمية والإنسانية.

وقد كان هذا الموقف الفكري الجديد ، نتيجة لأسباب كثيرة، منها : التأثير المباشر لاطروحات فيلسوف العلوم توماس كُون ، التي نشرها في ذلك الوقت عن نظرية التطور العلمي (٣) . فهو صاحب فكرة الربط الوثيق بين فلسفة العلم وتاريخه، عن طريق تتبع منهج الدراسة، وقد طرح من خلال مناقشته ، لما أسماه بنية الثورات العلمية، فكرة "النموذج الارشادي" (Paradigm) ، في محاولة منه للتشكيك في نظرية التطور العلمي عن طريق التراكم. فالنموذج الارشادي، ببساطة يعني مجموعة نظريات ومناهج معتمدة لدى المجتمع العلمي

ويشترك فيها كل العلماء . وفي مرحلة سيادة "نموذج ارشادي" ما، يظل التطور العلمي تراكميا، إذ يجري تحسين النظريات القديمة بغيرها، لتواكب الملاحظات العلمية الطارئة، وخلال ما اسماه الثورة العلمية، أي مرحلة التغير ، يلاحظ العلماء أشياء جديدة لم تكن مألوفة لديهم لاتستوعبها النظريات الموجودة، ويحدث تحول جذري يتطور في شكل نموذج مغاير . وتختلف الرؤية من ناحية العلاقات الجديدة التي يكشفها النموذج الفكري الجديد، فهي تعكس تغيرات جذرية ، تُحدث قطيعة بين القديم والجديد . وعندما ينزوي نموذج ، يحل محله نموذج آخر. والنماذج الإرشادية الجديدة "ليست نتيجة منطقية أو تجريبية للنظريات السابقة". ففي كل مرحلة تظهر ثورة علمية ، تكون السيادة فيها لنموذج إرشادي ، يهيئ للعلماء تقليداً متماسكاً لإجراء البحوث العلمية ، ثم يحل محله نموذج آخر في المرحلة التالية ، وهكذا الحال على مدى مسار التطور التاريخي للمعرفة ، وفي كل الأحوال فإن نتائج التحقيق المنهجي نسبية وغير ثابتة ، وأن الأفكار التي تقبل عالمياً هي التي تأخذ صفة النموذج الإرشادي ، وهكذا فالتقدم الحقيقي في العلوم يأتي في مرحلة التحولات الأساسية في النماذج الإرشادية ، واحلال نموذج مكان آخر (كُون ١٩٩٢ : ٤٥-٥٢ ، ١٣٤ ، ٢٢٧-٢٣٠) .

ظهر تأثير أفكار كُون في أدبيات علم الآثار الحديث منذ السبعينات، خاصة تلك التي كانت تدعو إلى إعادة النظر في تاريخ علم الآثار، وفي النظرية التاريخية الثقافية ، التي تشكل المحور الأساس في الدراسات الآثارية ، كذلك أثرت في الدعوة الى تبني مناهج جديدة في الاستنتاج ، والتركيز على قضايا حركة الثقافة وديناميتها ، ومن جهة أخرى أوضحت القصور الذي أصاب توجهات البحث الاثاري نتيجة ابتعاده عن مناهج العلوم التجريبية وفقدانه لنظرية متماسكة توجه الأبحاث فيه ويقول ديفيد كلارك ، أحد أعلام التيار الحديث في علم الآثار ، أن علم الآثار ظل حتى ظهور أفكار توماس كون ، "منهجاً امبيريقياً (تطبيقياً) غير ممنهج " (Trigger 1989: 50) .

تعرضت أطروحة كون لنقد ومراجعة من قبل فلاسفة العلوم، ولكن بعض الاثاريين المحدثين رأوا أن المراحل التي مرّ من خلالها علم الآثار ومافيها من المناهج والنظريات المتماسكة يؤهلها لأن تصبح نموذجاً إرشادياً . وعلى الجانب الآخر ظل عدد كبير من الآثاريين على اعتقادهم بأن الحال في علم الآثار لا يماثل العلوم الطبيعية التي وضع كون نموذجه عليها. ويعتقد هؤلاء أن التطور في المنهج والنظرية في علم الآثار ، كان تراكمياً ومتدرجاً عبر فترة زمنية طويلة ، وليس فيه ما يوحي بثورة أو انتقال مفاجئ في موجهات البحث الآثاري. إن أقرب احتمال لاطروحة كون ومناسبتها في علم الآثار، هو عندما نتبين أن التفسير الآثاري لم يتطور في اتجاه أحادي ، وإنما حدث نتيجة لمؤثرات من معارف شتى . وهكذا فإن النماذج الإرشادية المتغيرة هذه، قد تنبه الباحثين إلى مجالات وآفاق بحثية لم تكن موضع اهتمامهم.

ومهما يكن من أمر تأثير أطروحة كُون في علم الآثار الحديث، فإن التأثير الذي بدأ كحركة نقدية للمدرسة التاريخية - الثقافية ومناهجها، تفجر في سيل من فروع المدارس الفكرية خلال عقدين فقط من الزمان لكل واحد منها توجهاته النظرية والمنهجية، التي انتهت الى محورية شديدة في البحث الآثاري.

وبعد فترة وجيزة تعرض التيار العلمي الجديد، الذي يسعى إلى تفسير التغير الثقافي من خلال رصد حركة الثقافة وإصدار أحكام أو قوانين عامة عنها، إلى نقد شديد ، وكان النقد منصباً على أن هذا التيار يركز كثيراً على الجوانب المادية في حياة الإنسان، وينظر إلى الثقافة من خلال التكيف على البيئة، وذلك من منظور النظرية الوظيفية، التي عرفت في الانثروبولوجيا منذ الثلاثينات في القرن الماضي . وقد كان دعاة التيار الحديث أكثر تفاؤلاً في تقديراتهم، لما يمكن أن يتحقق من الأهداف التي طرحوها، إذ إن بعضها لايضع في الاعتبار إشكالات المادة الأثرية،

ومايترتب على ذلك من تطبيقات للمناهج الجديدة. ومهما يكن من أمر فقد توفرت لعلم الآثار لغة خاصة ، ذات عبارات دقيقة تقترب من لغة العلوم الطبيعية. ومن الفكر الذى وجد رواجاً بعد ذلك البنيوية ، ثم الوظيفية -البنيوية، الماركسية المحدثة ، والنظرية النقدية. وأصبحنا الآن نقرأ عن علم الآثار الجنساني (Gender Archaeology) ،وعلم الاثار المعرفي (Cognitive Archaeology) ، ضمن مسميات أخرى. وقد تراجع أخيراً بعض الفكر النظري في علم الآثار إلى الدعوة إلى المدرسة "التاريخانية المثالية" التي تركز على الظرف الاجتماعي الذي تكونت فيه الظاهرة الثقافية قيد الدراسة (Renfrew and Bahn 1991: 405-434) . وفي ضوء هذه المعلومات الموجزة عن الوضع المنهجي والنظري في علم الآثار في الوقت الحاضر، ننظر إلى دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل ، وذلك لأمرين : أولهما ، لنرى ما إذا كان في هذه الدراسات مراحل محددة المعالم، يمكن تمييزها على أسس توجهات نظرية ومنهجية ، وثانيهما لنرى مدى تأثرها بالتيارات الحديثة في علم الآثار آنفة الذكر .

دراسات ماقبل التاريخ في وادي النيل :

تعّرف العلماء على وجود الإنسان، خلال عصور ماقبل التاريخ في وادي النيل ، منذ القرن التاسع عشر ، ولكن جمع المواد الأثرية الدالة عليه ، من مواقع هذه الفترة ، لم يبدأ بصورة فعلية إلا مطلع القرن الماضي ، ومنذ ذلك الوقت مر تاريخ البحث الآثاري عن هذه الفترة بمنعطفات، فتارة تنشط الأبحاث، وتنقطع تارة أخرى ، حتى نشطت بصفة شبه دائمة، بعد حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩- ١٩٦٥م) . كما لاتوجد دراسة مفصلة عن طبيعة أبحاث ماقبل التاريخ ومناهجها ، إلا مايرد عنها في شكل موجز ومقتضب، ضمن مقدمات التقارير والمؤلفات ، التي تحوي نتائج المسح والتنقيب في حقب ما قبل التاريخ ، في مصر أو السودان. وقد كتب آدمز مقالا ناقش فيه تاريخ البحث الآثاري في السودان وذكر أنه يمكن تقسيمه إلى أربع مراحل متعاقبة ، تمثل كل واحدة منها نموذجاً إرشادياً متوافقاً مع الوصف ، الذي طرحه كُون من قبل. ويرى آدمز أن هذه النماذج الإرشادية في البحث، تعكس متغيرات الأحوال السياسية، خلال فترة الحكم الأجنبي وما بعده. وفي الوقت نفسه حدد شكلها التقدم في المنهجيات والتخصص المهني، الذي حدث في علم الآثار. هذا إضافة الي التغير الذي طرأ في نظرة الغرب إلى أفريقيا وشعوبها من ناحية فلسفية. وكان أول هذه النماذج التي اقترحها آدمز، هو الذي يحمل الأفكار التي سادت في القرن التاسع عشر، وسماه نموذج "القطف"، أو جمع الآثار دون موجهات علمية تذكر. والثاني نموذج ماسماه بمرحلة "الاستعمارية المستنيرة" وهي الفترة التي شهدت ميلاد البحوث حول أصول الحضارة المصرية القديمة في شمال السودان . والثالث نموذجٌ ما بعد الاستعمار، والرابع هو النموذج الوطني (Adams 1981)، ومن الملاحظات التي تؤخذ على هذا التقسيم، أنه لم يشتمل في مادته على الأبحاث التي أجريت عن فترة ماقبل التاريخ ، إذ حصره المؤلف في الآثار التاريخية. ومن جانب آخر، لم يبين بصورة واضحة الفروق الفكرية أو المنهجية بين المرحلتين الثالثة والرابعة. كذلك يمكن الإشارة الى أن النظرية التاريخية الثقافية، كانت بارزة في معظم الأعمال الرئيسية، التي تمت في الدراسات الآثارية في السودان على اختلاف مراحلها ، وما خرج عليها يعد في حكم النادر. وسيتضح عند مناقشتنا لأبحاث ماقبل التاريخ في الصفحات التالية صعوبة تطبيق فكرة النموذج النظري الإرشادي الواحد الذي تنتظم فيه معظم الدراسات.

بعد مراجعة نتائج دراسات ماقبل التاريخ في السودان ومصر تبين أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل رئيسة ، تمثل كل واحدة منها عدداً من الاتجاهات المنهجية والنظرية. كذلك، يلاحظ أن النظرية السائدة في أي من هذه المراحل الثلاث، لم تختف، مرة واحدة ، بدليل التداخل النظري بين المراحل، كما أن كثيراً من الأفكار الحديثة السائدة في الأبحاث

العالمية اليوم، لم تنعكس بطريقة مكتملة في المرحلة الثالثة، كما سيأتي ذكره. ويرتكز التقسيم الثلاثي المقترح على أساس طبيعة المناهج الميدانية، والطرق المتبعة في دراسة المعثورات، والآراء التي تبناها العلماء في تفسيرهم لتطور ثقافات العصور الحجرية في المنطقة، في إطار ما هو معروف في الدراسات العالمية المماثلة. فالمرحلة الأولى تغطي الفترة منذ بداية الأعمال الميدانية الفعلية عند بداية القرن الماضي حتي العام ١٩٦٠م، حيث تبدأ المرحلة الثانية مع حملة إنقاذ آثار النوبة، التي تعد نقطة مفارقة في تاريخ البحث الآثاري عموماً في المنطقة. أما المرحلة الثالثة فهي التي شهدت الأعمال، التي أعقبت تلك الحملة من العام ١٩٧٠ م تقريباً، حتى الآن. ومن أجل تحديد ملامح هذ التقسيم نتناول كل مرحلة على حدة.

المرحلة الأولى:

على الرغم من أن البحث عن مواقع ماقبل التاريخ، لم يبدأ بصورة علمية منتظمة إلا في العقدين الأولين من القرن الماضي، إلا أن وجود المعثورات الأثرية من هذه الفترة، تم تسجيله بواسطة عدد من الرحالة المستكشفين في مصر، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ومن الملاحظ أن الاهتمام بهذه الفترة كان مبكراً في مصر، بينما أهمل بعد ذلك عند بداية الحرب العالمية الثانية. ويعزى ذلك إلى سببين رئيسين: أولهما، اعتقاد كثير من الباحثين بعدم أهمية المنطقة حضارياً في تلك الفترة بسبب تخلفها عن مسيرة التطور، الذي حدث في مناطق أخرى من العالم، وثانيهما، التركيز والشهرة اللتان اكتسبتهما مصر، باكتشاف الحضارة المصرية العريقة، بفنونها الزاهية، وعمارتها، ولغتها القديمة، وهي الحضارة التي امتد إشعاعها بعيداً في أرجاء العالم القديم. لقد كان العمل الاثاري، الذي أداره الغربيون في ذلك الوقت، موجهاً بصفة رئيسة نحو البحث في أصل الحضارة الإنسانية، وخصائصها وكيفية انتشارها من منابعها الأولى في مصر، كما رأى كثير منهم، إلى بقية أنحاء العالم.

وفي مصر تعرف الباحثون على وجود الإنسان، أولاً في الصحراء الغربية، من خلال رحلات المستكشفين الأجانب، في أواخر القرن التاسع عشر. وفي أوائل القرن الماضي، وصف شوينفيرث وكورلي وستيرت، أدوات من العصر الحجري القديم، وكذلك فعل الشئ نفسه بوفير-لابيني، من خلال أعماله في العباسية بالقرب من القاهرة، ولم تكن هذه الاكتشافات منتظمة أو ذات أهداف محددة (Wendorf and schild XV : 1976). ويأتي في مقدمة الأعمال المهمة من التنقيب والبحث، في مواقع ماقبل التاريخ، ما قام به كاتون طوسون وغاردنر في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، إذ تمكنا من اكتشاف حضارة ماقبل الأسرات، متمثلة في البداري. ثم أعمالهما الرائدة في الفيوم، عندما حددا تسلسل الأدوار الثقافية هناك، من بدايتها حتى ظهور مجتمعات إنتاج القوت، في العصر الحجري الحديث. وبعد ذلك تأتي أبحاثهما في واحة الخارجة (١٩٣٠-١٩٣٢ م). حيث وصفت كاتون طومسون تسلسل أدوار العصر الحجري القديم، بدءاً من الأشولية وما أسمته الأشولي-اللفالوازي. فقد كان هذا أحد الأعمال الكاملة المبكرة في الصحراء الغربية في مصر.

ونالت هذه المنطقة حظها من قبل في زيارات الجيولوجيين والآثاريين والمستكشفين، وكذلك اكتشف حسين بك في ١٩٢٤ م الرسومات الصخرية في منطقة العوينات، وكذلك باقنولد (Bagnold). وميرز (Myers). ويأتي في صدر قائمة الأعمال الميدانية المهمة، في تاريخ البحث الآثاري في مصر أيضاً، ما قام به فينارد (Vignard)، في كوم امبو في أواسط مصر، حيث اكتشف ماأطلق عليه "حضارة السبيل" المشهورة، التي نسبها إلى العصر الحجري الأعلى، ووصف أدواتها بأنها خليط من تقنيات العصر الحجري القديم الأعلى، والصناعة الموستيرية، التي ظلت عالقة في المنطقة حتى وقت متأخر، مما يوحي بأن المنطقة

كانت متأخرة حضارياً، ولم تشهد الابتكارات الحضارية، التي عرفتها مناطق اخرى. وقد تردد مثل هذا الرأى في كتابات كاتون طومسون ، عندما ذكرت -مثلاً- أن إقليم شمال شرق أفريقيا كان منغلقاً ومكتفياً ذاتياً في فترة العصور الحجرية. ويبدو كذلك أن التطور الحضاري كان بطيئاً ، وبعيداً عن التيارات الحضارية الرئيسية، التي عرفتها منطقة الشرق الأدنى وأوروبا (Caton-Thompson 1946: 57-58) .

وقد حظيت منطقة النوبة بقدر من الاهتمام في مجال البحث الآثاري ، خلال هذه المرحلة المبكرة من العمل الميداني ، عندما تقرر بناء خزان أسوان ، وتعليته فيما بعد. وقد أجري مسحان أثريان (١٩٠٧-١٩١١ و ١٩٢٩-١٩٣٣) في منطقة النوبة السودانية ، ولم يذكر فيهما شئ عن وجود مواقع تعود للعصر الحجري القديم ، بل ذكر في تقاريرها أن الاستيطان البشري بدأ بوصول مجموعات سكانية من خارج المنطقة ، أعطيت حضاراتها أسماء بالحروف الأبجدية وبدا واضحاً أن الاهتمام الأكبر كان من نصيب حفر المقابر ووصف المعابد، والمباني الشاخصة ، التي نُسبت للحضارة الفرعونية ، بسبب اعتقاد الباحثين أن منطقة النوبة تمثل امتداداً حضارياً لمصر ، ولهذا يجب وضع آثارها ضمن الهيكل التاريخي المعروف لديهم سلفاً (Adams 1963) .

وأما الإشارة الواضحة لوجود آثار من العصور الحجرية ، فقد وردت فى أعمال ساندفورد وأركل ، التي قاما بها في النوبة المصرية ، عندما حاولا -في الثلاثينات - دراسة جيولوجيا المنطقة، وترسبات فيضانات نهر النيل القديمة. وقد وصفا مجاميع أدوات حجرية من نوع الأشولية والموستيرية. وبعد ذلك أجريا مسحاً مماثلاً في النوبة السودانية ، حتى سمنة جنوباً، وبناء على تلك المعلومات وصفا تسلسل أدوار العصر الحجري القديم ، وخلصا إلى أن الصناعة الاشولية لا توجد جنوب وادي حلفا ، كما أن الصناعة الموستيرية استمرت في المنطقة لوقت طويل بعد اختفائها في المناطق المجاورة، وبهذا يدعمان ماذكرته كاتون طومسون من قبل ، بأن التطور الثقافي خلال العصر الحجري القديم ، كان هامشياً ومحافظاً (Sandford and Arkell 1933: 35) .

أتيح لأنطوني آركل ، أحد الإداريين البريطانيين في السودان ، الذي أصبح مديراً للآثار في ١٩٣٨م، أن يجمع أدوات حجرية من نوع الأشولية من السطح ، في كثير من المواقع المتفرقة في البلاد ، وبهذا يكون قد أوضح وجود الإنسان المبكر إلى الجنوب من الخرطوم ، على غير ماكان يعتقد. ومن أهم اكتشافاته موقع خور أبو عنجة الأشولي ، الذي نشر تقريراً عنه مع تلك المكتشفات في أول كتاب خاص بالعصر الحجري القديم في السودان عام ١٩٤٩م . وعلى الرغم من أن هذا العمل كان محدوداً إلا أنه دحض الرأي القائل بخلو المنطقة من وجود الإنسان في تلك الفترة (Arkell 1975) . ومن أهم أعمال آركل، ذات الأثر الكبير في دراسات ماقبل التاريخ في السودان ووادي النيل عموماً، تنقيبه في موقعي الخرطوم القديمة والشهيناب التي تقع نحو ٥٠٠ كم إلى الشمال من أم درمان .

وصف آركل الخرطوم القديمة بأنها مستوطنة يعود تاريخها للألف الثامن قبل الميلاد، وكانت مستوطنة شبه دائمة ، اعتمد أصحابها على صيد الحيوانات البرية والأسماك وصنعوا أدوات حجرية متميزة ، وكذلك الخطاطيف العظيمة ، التي عرفت بها هذه الحضارة ، كما أنهم صنعوا الفخار المزين ، بالخطوط المتصلة والمموجة، وبأخرى متقطعة مموجة ، أو متعرجة. ولم يتمكن هؤلاء الصيادين من ممارسة الزراعة، أو استئناس الحيوان (Arkell 1949). وفي الموقع الآخر (الشهيناب) ، اعتمد السكان على الصيد البري والمائي ، واستأنسوا الأغنام والماعز والأبقار ، ولم يوجد دليل على الزراعة وتطورت صناعة الفخار حيث عرفوا الصقل والزخرفة بأشكال أخرى متنوعة واعتقد آركل أن الشهيناب (الألف الرابع ق.م) كانت تطوراً طبيعياً من حضارة الخرطوم القديمة أي تطوراً من العصر الحجري الوسيط ، الي العصر الحجري الحديث. وقد وجد حلقة الوصل بين الموقعين في موقع آخر

(القوز)، في منطقة الخرطوم (Arkell 1953) . ويعتقد آركل أن حضارة الشهيناب ظلت محصورة في وادي النيل، بينما طور نظريته المعروفة بأن الخرطوم القديمة كانت هي المركز الذي ظهر فيه الفخار أولاً في أفريقيا، ومن ثم انتشر بزخارفه المميزة في منطقة واسعة، تمتد شمالاً حتى الفيوم، وإلى الصحراء الكبرى في الغرب. وقد ظلت أفكاره متداولة حتى اليوم، بين مؤيد ومعارض. ومهما يكن من أمر فإن آركل استطاع أن يضع منطقة النيل الأوسط في خارطة أبحاث ماقبل التاريخ، وجذب إليها أنظار العلماء، وظلت أفكاره رائجة لوقت طويل بعد ذلك. ومن المناسب هنا الإشارة، إلى أن وجهة نظر آركل تمثل فعلاً أحد النماذج الفكرية السائدة في أواسط القرن الماضي في علم الآثار، وهي فكرة الانتشارية. فهناك في الخرطوم القديمة، حدث تطور ثقافي محلي، أصبحت بموجبه المنطقة مركز إشعاع حضاري، يبث مؤثراته بوسائط غير محددة على وجه اليقين، إلى أماكن بعيدة، وتتشكل نتيجة لهذا الانتشار منطقة ثقافية يمكن تحديد معالمها جغرافياً. كذلك تجدر الإشارة إلى أن آركل استخدم كل ما كان متاحاً في وقته من منهجية ، لعمل تنقيبات ميدانية منظمة، جمع خلالها المواد العضوية والمعثورات والظواهر، التي استطاع أن يكّون من خلالها صورة مناسبة عن حياة أولئك الصيادين في منطقة الخرطوم .

إذا أراد المرء أن يصف حالة البحث حول فترة ماقبل التاريخ في السودان ومصر خلال هذه المرحلة، فيمكنه القول :

١- لم تكن المنطقة المذكورة في مقدمة المناطق في العالم القديم ، التي حظيت كثيراً باهتمام الاثاريين ، وربما يعود ذلك الى انشغالهم بالحضارة المصرية القديمة في العصور التاريخية، وانكباب العلماء، من مختلف مراكز الأبحاث العالمية على دراسة آثارها وفنونها الرائعة.

٢- لم تكن هناك أبحاث خطط لها، ماعدا حالات قليلة. فالأعمال الميدانية كانت تتحكم فيها الصدفة. فعندما تقرر بناء خزان أسوان - مثلاً - أصبح العمل الآثاري إنقاذياً في المقام الأول ومن جانب آخر ،كانت بعض مواقع ماقبل التاريخ، يسجلها المستكشفون ولايكتبون عنها وصفاً كاملاً. وهكذا ظلت دراسات ماقبل التاريخ بعيدة عن الاهتمام .

٣- يلاحظ أن معظم المواد الأثرية، التي تم تسجيلها أود دراستها كانت ملتقطات سطحية من الأدوات الحجرية، مما جعل الباحثين يركزون على تصنيفها وترتيبها، بهدف معرفة الأدوار الثقافية التي تمثلها. وفي تحديدهم لمعالم الأدوار الثقافية في ماقبل التاريخ ، اعتمدوا على أنواع معينة من الأدوات الحجرية عدت نموذجية، وهو الشئ نفسه الذي فعله علماء ما قبل التاريخ في أوروبا. ومن ثم استخدموا المصطلحات نفسها المعروفة في أوروبا، ولم يلتفت أحد في ذلك الوقت، إلى احتمال عدم مناسبةً بعضها للمواد المكتشفة في وادي النيل. كذلك كانت المقارنات محصورة بما عُرف في أوروبا والشرق الأدنى. ونادراً مايذكر الإطار الجغرافي لوادي النيل في أفريقيا، عند إجراء هذه المقارنات.

المرحلة الثانية :

على الرغم من أن العمل الميداني، في شكله المحدود ذاك، لم ينقطع، إلا أن بداية حملة إنقاذ آثار النوبة في عام ١٩٦٠م، تمثل نقطة تحول أساسي في تاريخ العمل الآثاري في المنطقة، بصفة عامة، وماقبل التاريخ بصفة خاصة. فخلال هذه الفترة استمرت عمليات المسح والتنقيب، في منطقة محصورة على ضفتي النهر في منطقة النوبة، بين الشلال الأول والثاني ، لمدة خمس سنوات. واستمرت أعمال التحليل والدراسة والنشر بعد ذلك، حتى عام ١٩٧٠م تقريباً . وقد دخل إلى منطقة النوبة مالايقل عن أربعين بعثة تنقيب أجنبية، بعد النداء الذي وجهته الأمم المتحدة، وحكومتا مصر والسودان ، لإنقاذ آثار النوبة. وكان يقصد بها آنذاك، المعابد والقصور والكنائس وكل

الآثار الشاخصة في المستوطنات القديمة. ولم تكن آثار ماقبل التاريخ، ضمن الخطة الأصلية لمشروع البحث ، ولكنها اعتمدت بعد بداية الحملة فعلياً، وقبل التعرض للمنهجية، التي اتبعتها الفرق البحثية في مواقع ماقبل التاريخ، يجدر أن نقرر أن نتائج تلك الأعمال الميدانية، التي نشرت تباعاً بعد عام ١٩٦٥م كشفت عن معلومات جديدة ومثيرة، عن الأدوار الثقافية في العصور الحجرية في تلك المنطقة، من وادى النيل. فقد اتضح من الوهلة الأولى ، خصوصيتها وثراء التجربة الإنسانية فيها. فقد كشفت أعمال البحث والتنقيب، عن العديد من التقاليد الثقافية المتميزة، التي تطورت محلياً، وأخرى تأثرت بعوامل محلية وخارجية، من شمال أفريقيا ومن شمال وجنوب الوادي، وقد كانت المنطقة خلال الجزء الأخير من البلايستوسين، تعيش نمواً ثقافياً مهماً وحيوياً خلافاً لما كان يظن أنها تعانيه من ركود وعزلة ثقافية. (Wendorf 1968 a: Introduction) .

وقد عملت تلك البعثات في المسح والتنقيب في آثار المنطقة، وعدد قليل منها تخصص في مواقع ماقبل التاريخ، في مصر والسودان. وفي هذه المرحلة كان العمل محصوراً في المنطقة، التي ستغمرها مياه السد العالي وماجاورها. ففي شمال السودان انحصر البحث في منطقة مساحتها ستون كيلو متراً فقط، حول مدينة وادي حلفا. والفضل في معظم، بل في أهم ماحققته تلك الفرق العلمية من اكتشافات، يعود للبعثة الأمريكية المتحدة، المكونة من عدة باحثين ينتمون إلى جامعات من أقطار مختلفة، بقيادة فرد وندورف، التي نشرت أعمالها بصورة غير مسبوقة في عدد من المجلدات والأبحاث المتفرقة. حدث هذا على الرغم من الخلفيات الأكاديمية المتباينة للباحثين، الذين يجتمعون لأول مرة في منطقة واحدة محصورة، لم يكن لمعظمهم - بما فيهم رئيس الفريق نفسه - خبرة سابقة بنوع مواقعها وطبيعتها ومشكلاتها. ولهذا يلاحظ بعض الاضطراب في المسميات والمصطلحات المستحدثة، في وسائل تصنيف ووصف المعثورات، الأمر الذي أثر سلباً في ترتيب المراحل الثقافية خلال العصور الحجرية بل في تحديد معالمها بشكل دقيق واضح.

وقد ساهم التطبيق الصارم لأنظمة التصنيف الآثاري الأوروبية، في وجود مثل هذه الاشكاليات. فعلى سبيل المثال، استعملت قائمة الأدوات، التى ابتكرها فرانسوا بورد، في تصنيف الصناعات الموستيرية النوبية، ولكنها وجدت غير مناسبة لتطبيقها في تصنيف أدوات ماسمي بصناعة خور موسى . وقد كان من الممكن إضافتها للمجموعة الموستيرية، إذا استخدمت منذ البداية طريقة أخرى، كما اتضح فيما بعد عند إعادة دراسة هذه المادة (Elamin 1981: 1- 13) . ومن جهة أخرى، فإن الطبيعة الإنقاذية جعلت تلك الأعمال الميدانية جزئية، كما أن بعضها اعتمد على مواقع أثرية منتقاة. وربما يضاف إلى ذلك، أن العمل نفسه لم يكن من النوع الذى اقتضته قضايا أثرية محددة ، أو فرضيات معينة، حول تطور ثقافات العصور الحجرية في المنطقة، كما حدث في بعض الدراسات الأخرى في السودان، عقب انتهاء الحملة.

وعلى الرغم مما ذكر، تمكنت البعثة الأمريكية المتحدة من توثيق أكثر من عشرين تقليداً في صناعة الأدوات الحجرية. وبناء على ما فيها من خصائص تقنية، ونوعية مشتركة وعلاقات زمانية ومكانية فقد عدت كل واحدة منها ذات طابع خاص متميز وقد رتبت في تسلسل زمني، يمتد من الدور الأشولي حتى نهاية العصر الحجري الحديث. وقد كانت أعمال هذه البعثة متميزة بشموليتها، من حيث إجراء البحوث الجيولوجية، والبيئية ذات الصلة، ثم جمع كل ماهو متاح من معلومات، تفيد في التعرف على أنماط الاستيطان البشري القديم، والكثافة السكانية وأنماط الاقتصاد المعيشي. وقد كانت المعلومات حول هذه الأمور قليلة في كثير من الحالات، نسبة لطبيعة المواقع نفسها، خاصة أنها فقدت كل ماكان فيها من مواد عضوية، بفعل عوامل الطبيعة .

ومن ناحية منهجية، اعتمدت الدراسة على

الاعتقاد بأن كل المعثورات، وفي معظم الحالات، الأدوات الحجرية، التي توجد في مكان واحد وفيها ما يوحدها من الخصائص ، تسمى مجموعة (Assem-blage). ثم توضع -بعد ذلك- الجاميع التي تشترك في خصائص نوعية وتقنية بنسبة كبيرة، في وحدات تسمى صناعة (Industry). ويعتقد الباحثون أن كل وحدة، أوصناعة، تمثل وحدة ثقافية يمكن نسبتها لثقافة مجموعة سكانية، عاشت في المنطقة في الزمن المعين . وعلى هذا الأساس ترتب الصناعات، اعتماداً على أسس تصنيف المعثورات بالطرق المعهودة في دراسات ماقبل التاريخ عالمياً ، كما ذكر آنفاً. ولكن تجربة البعثة الأمريكية نفسها أوضحت .أن هناك بعض الجاميع لايمكن وضعها ضمن أي صناعة تم تعريفها، ولهذا جمعت في قائمة أطلق عليها اسم متفرقات "Miscellaneous" . وتبعاً لهذا النموذج . تعد كل صناعة ممثلة لأنشطة مجموعة من الناس، يشتركون في ثقافة مميزة وهذه الصناعات الحجرية تمثل "حقائق ثقافية وليست نتيجة لنشاط وظيفي متخصص، أو تكيف بيئي موسمي، أو أنها تجمعت صدفة نتيجة لأسلوب الجمع من الميدان، أوالتصنيف". والمبدأ العام في هذا النموذج أنه، إذا كان الاختلاف ضئيلاً بين الجاميع الأثرية المتعاقبة، فإن ذلك يعدتطوراً واستمرارية، وعندما يكون الاختلاف كبيراً، فيفسر ذلك بدخول مجموعات عرقية جديدة للمنطقة، ذات ثقافة مختلفة. وفي حالة منطقة النوبة، عندما تكون الصناعات متزامنة ومختلفة ، فإنها تمثل تعايشاً بين مجموعات مختلفة ثقافياً وعرقياً في إقليم واحد (Wendorf 1968b: 1041) .

إن هذا النموذج الفكري، في تفسير التنوع في الخلفات المادية لجموعات ما قبل التاريخ . يذكّر مباشرة بنموذج "الثقافة الآثارية"، التي عرفها ووضع أسس طرائق تحديدها ، غوردون شايلد، وغيره من رواد علم الآثار في الأربعينات، من القرن الماضي. فهذه الفكرة هي التي بدأ بنقدها أصحاب مدرسة التيار الحديث في علم الآثار، عندما بينوا عيوب التوجه التاريخي - الثقافي ، الذي يقوم على أسس التصنيف الشكلي للأدوات الحجرية. وهو في ذلك يعتمد على النسب الإحصائية بين مجاميعها، ثم ينظر إليها في حلقة متصلة كما لو أنها تتناسل، بينما هي في الواقع من فعل الإنسان، بطبيعة الحال (Binford 1966) . ومن دون مناقشة الأساس النظري، الذي اعتمدت عليه مثل هذه الدراسات، فهناك ثغرات إجرائية في المنهج، يمكن الإشارة إليها فمن ذلك مثلاً ، أن الاختلافات المذكورة بين الجاميع ، تقوم أساساً على فروقات إحصائية، في نسب أنواع الأدوات الحجرية . كما أن تصنيف الأدوات ونسبها، يتوقف -هو الآخر - على عينة الدراسة ومدى تمثيلها للكل. وهناك اختلاف نتائج التصنيف المبدئي، الناجم عن تطبيقات لأشخاص مختلفين. فالصناعات الموستيرية في منطقة النوبة السودانية ، تم تعريفها من دراسة مجاميع أدوات حجرية وجدت على السطح ، في أحد عشر موقعاً. وقد صنفت الأدوات على أساس قائمة بُورد، لتصنيف أدوات العصر الحجري القديم الأوسط . ولكن حجم العينة في بعض الحالات كان غير مناسب، لإجراء مقارنات إحصائية بين تلك الجاميع. وقد قسمت الصناعات الموستيرية إلى أربعة أنواع ، وذكر أن بعضها يماثل الصناعات الموستيرية في غرب أوروبا تقنية ونوعاً، وهو أمر خاضع للتأكيد (Marks 1968:292) . ومهما قيل من ملاحظات عن أعمال هذه البعثات، خلال حملة إنقاذ آثار النوبة، فإن الإيجابيات تفوق السلبيات. أما عن أبحاث ماقبل التاريخ ، فيمكن القول أن النتائج التي حصلت عليها بعثات التنقيب ، فتحت الباب على مصراعيه في مصر والسودان لدراسات جديدة ، بتوجهات وأهداف مختلفة، كان لها نتائجها العلمية المهمة. (كما سيأتي ذكره في الفقرة التالية).

إن الأعمال الميدانية، ودراسة ما عثر عليه من مواد أثرية، في هذه المرحلة من أبحاث ماقبل التاريخ في منطقة النوبة وخارجها، يمكن تلخيص أهم ملامحها المنهجية في الآتي:

أ- إن تقنيات المسح والتنقيب وتسجيل المعثورات، وكل إجراءات العمل الميداني، كانت تتسم بمعظم الصفات المطلوبة في العمل الآثاري الحديث. وقد وضعت تقاليد جديدة للعمل الآثاري ترسخت مبادؤها فيما بعد في المنطقة. فقد استفاد عدد من الباحثين من تجارب هذه الحملة العلمية الكبيرة ، في تطوير قدراتهم الأكاديمية، وتخصصوا في ميادين برزوا فيها لاحقاً.

ب- كان التوجه الأساس نحو تأصيل التاريخ الثقافي لفترة ما قبل التاريخ، معتمداً على المناهج التقليدية المعروفة، في تصنيف المعثورات الأثرية منذ فترة طويلة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن المنطقة لم تكن معروفة تماماً للباحثين ، في تلك الفترة من التاريخ البشري. وربما كانت مناهج التصنيف الأوروبية عائقاً في كشف حقيقة أشكال التنوع الثقافي في تلك الفترة، مما خلق اشكالات في طرح مسميات غير واقعية، لأدوار ثقافية يصعب إزاحتها من أدبيات الدراسة.

ج- وجدير بالذكر أيضاً، أن العمل الآثاري في كل فترات التاريخ الحضاري في السودان خلال هذه المرحلة كان الباحثون يعملون على إبراز الدور المحلي في تكوين الثقافات السودانية وصفاتها، بعيداً عن تأثيرات الحضارة المصرية القديمة، وكنتيجة لترجيح الأصل المحلي، وتفضيله على المؤثرات المصرية، حلت "مركزية نوبية" مكان "المركزية المصرية" السابقة، في تفسير تطور الحضارات السودانية. ولكن هذا التوجه بدأ يفقد تفوقه عندما أجريت الأبحاث في المناطق الداخلية من السودان .

د- يلاحظ أيضاً أن مناهج التفسير الآثاري، المستخدمة في الأعمال الرئيسة لهذه المرحلة من الأبحاث، لم يُستفد فيها من الاطروحات النظرية الحديثة، في الانثروبولوجيا، ولا مناهج الاثنواركيولوجيا .

المرحلة الثالثة :

تمثل هذه المرحلة الأبحاث، التي أعقبت حملة إنقاذ آثار النوبة ومازال مستمرة حتى الآن . وهي تعكس ذروة النشاط الآثاري في السودان ومصر خاصة في حقول آثار ماقبل التاريخ. إذ نفذت منها أبحاث على مستويات رفيعة في التحليل المنهجي والنظري، وهي الأقرب إلى التيارات الحديثة في علم الآثار. وبما أن الدراسات التي أجريت حديثاً حول فترة ماقبل التاريخ، كثيرة ومتنوعة فسوف يكتفي هذا البحث باستعراض أهمها، وأشدها تأثيراً في مجريات البحث ، بما طرقته من توجهات نظرية ، أو منهجية جديدة. ومن الملاحظات الأولية حول هذه المرحلة، أن مشاريع الأبحاث الميدانية كان يخطط لها باختيار الباحثين. وفي كثير من الحالات تجرى الأبحاث لتتبع قضية بحثية بعينها، كما أن مناطق جديدة في مصر أو السودان أجريت فيها عمليات تنقيب في مواقع ماقبل التاريخ لأول مرة وكانت نتائج مثل هذه الأعمال قد أثارت عدداً من الأسئلة الجديدة مثل ماحدث عقب نشر نتائج حملة إنقاذ آثار النوبة.

بعد انتهاء حملة إنقاذ آثار النوبة، استمرت البعثة الأمريكية المتحدة في ريادة العمل الآثاري في ماقبل التاريخ في مصر. وقد حاولت نقل أعمالها إلى السودان أيضاً إلا أنها لم توفق سوى في موسم واحد. ولأن أعمال هذه البعثة هي الأهم، وذات التأثير الكبير في سير الأبحاث في المنطقة، فمن المنطقي أن نتتبع أعمالها، من ناحية منهج العمل الذي اتخذته، والأفكار الرئيسة، التي استعانت بها في التفسير الآثاري. ولم تكن هي البعثة الوحيدة التي عملت في مصر ، بل كان هناك بعثات أخرى ، من جامعات ومراكز أبحاث عالمية ، تنقب في أواسط مصر وفي الصحراء الشرقية وغيرها. وواصلت البعثة الأمريكية عملها بطاقم باحثيها الرئيسيين، وانضم اليها في فترات متعاقبة اختصاصيون في مجالات مختلفة، من العلوم المساعدة. وقد توفرت للباحثين الرئيسين،

آنذاك، الآن خبرة واسعة بطبيعة المنطقة ، وباشكاليات البحث اللوجستية، إضافة إلى مواضيع البحث التي تستحق المتابعة، ومن المعروف أن نتائج حملة إنقاذ آثار النوبة، تركت قضايا علمية معلقة تستحق المتابعة. ويأتى في مقدمها التأكد من طبيعة وتاريخ فيضانات نهر النيل، وتأثرها بالمناخ الإقليمي، وعلاقة أنظمة النهر الايكولوجية بالاستيطان البشري . ثم هناك علاقة السهل الفيضي بالصحراء المجاورة، وانتشار المجموعات السكانية في داخل الصحراء الغربية. كما تبرز كذلك، مسألة معرفة موارد الاقتصاد المعيشي المتاحة للصيادين، خلال فترة البلايستوسين المتأخرة وتكّيف السكان على ذلك بابتكار تقنيات متطورة، قادتهم لاحقاً إلى مستويات ثقافية جديدة.

ومن القضايا البحثية الأكثر إلحاحاً في الوقت الراهن، في علمي الآثار والانثروبولوجيا، قضية ظهور وانتشار الإنسان العاقل الحديث (Homo sapien sapien) في العالم القديم. فوادي النيل لم يكن وارداً في السابق عندما يتطرق العلماء لمناقشة مثل هذه الموضوعات . أما الآن، وبعد أن طورت نظرية المهد الأفريقي للإنسان العاقل الحديث ، ومن ثم انتشاره في الشرق الادنى وأوروبا . كان لابد أن يطرح وادي النيل كأحد المعابر الطبيعية لهذا الانتقال . وقد أوضحت الاكتشافات الأثرية الحديثة ، في مرحلة حملة إنقاذ آثار النوبة ومابعدها، أن وادي النيل كان مشاركاً في التطورات الحضارية، التي شهدتها فترة العصر الحجري القديم الأعلى، التي يُعتقد أن الإنسان العاقل الحديث انتشر خلالها. وتشير أبحاث البعثة البلجيكية على مدى سنوات، في أواسط مصر، إلى أن تقنيات صناعة أدوات العصر الحجري القديم الأعلى قد ظهرت هناك في حدود ٣٨،٠٠٠ ق.م . وبمناقشة مجاميع هذه الصناعات الحجرية مع تلك التي تنسب للعصر الحجري القديم الأوسط طرح الباحثون أفكاراً مهمة حول دور هذه المنطقة، في فهم أفضل للهجرات البشرية آنفة الذكر. وتبدو هنا أهمية الهيكل العظمي الذي أكتشف هناك مؤخراً، ووصف بأنه من نوع الإنسان العاقل الحديث، ويؤرخ إلى التاريخ المذكور نفسه (Van Peer 1998) .

ومن جهة أخرى كانت الأبحاث السابقة مهتمة بقضايا حيوية، مثل: تاريخ ظهور مجتمعات إنتاج القوت في وادي النيل ، وأصل وكيفية الانتقال الى تدجين الحيوانات وزراعة الحبوب ، وكذلك البحث في عمليات التكيف البيئي وأنماط الاقتصاد المعيشي ، وما أدت إليه هذه الابتكارات الجديدة من تغيير في حياة الناس ومجتمعاتهم. لقد تجددت هذه الموضوعات في هذه المرحلة، ولكن أصبح ينظر إليها من مداخل منهجية ونظرية جديدة، يؤمل من نتائجها معرفة تفاصيل التطور الثقافي في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المنطقة . كذلك النظر للتحولات العميقة التي حدثت في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، في مجتمعات ماقبل الأسرات في مصر ، وكيف أدت بدورها إلى نشوء الدولة المركزية، ربما لأول مرة في العالم القديم. وقد طرحت الأسئلة نفسها بالنسبة للنيل الأوسط في السودان بحثاً عن ظهور مجتمعات العصر الحجري الحديث، ونمو أنظمة سياسية واقتصادية جديدة، تتمثل في أنماط حياة الرعي والإنتاج الزراعي، وما أفضت إليه من تطورات حضارية. وإذا كانت هذه هي القضايا العامة، التي شكلت موضوعات البحث في هذه المرحلة، من أبحاث ماقبل التاريخ في المنطقة، فينبغي أن تلقى نظرة على المناهج، التي اتبعها بعض الباحثين في الإجابة عن الأسئلة المطروحة حول هذه الموضوعات، وعلى الأفكار الرئيسة التي صارت تميز أبحاثهم.

لقد وُصفت مجهودات فرد وندورف ، الباحث الرئيس في البعثة الأمريكية المتحدة، على مدى أكثر من ثلاثين عاماً متصلة في المنطقة ، بأنها الأكثر فعالية ومساهمة في إبراز الدور الحضاري للمنطقة، كما أنه أرسى ومجموعته أسس العمل الميداني الموجه لأبحاث طويلة الأجل، بما فيها من الجهد الكبير

في التنظيم الإداري المحكم، والاستعداد اللوجستي الكامل، للعمل في ظروف صعبة، مثل ما هو الحال في صحراء مصر الغربية. إضافة إلى الاكتشافات المهمة والمساهمات العلمية المستخلصة منها (Clark 1987: 1-11).

بدأت البعثة الأمريكية المتحدة أبحاثها في مصر عام ١٩٦٧م، بعد حملة إنقاذ آثار النوبة مباشرة، في المنطقة إلى الشمال من أسوان، بالتركيز على ادفو وشمال إسنا ، حتى نجع حمادي، ثم في منطقة الفيوم . وبعد ذلك توجهت البعثة إلى منطقة الصحراء الغربية، حيث أجرت مسوحات واسعة لحصر المواقع الأثرية وتسجيلها وأخذ عينات منها، ثم عمل خرائط تعكس أنماط الاستيطان أولاً ثم اختيار مواقع منها للتنقيب والدراسة التفصيلية . وتأتي منطقة وادي الكبانية، في الجنوب الغربي في مقدمة أهم المناطق ، التي عملت فيها البعثة، إذ توجت مجهوداتها باكتشافات أثرية في غاية الأهمية .

تتميز أعمال البعثة الأمريكية المتحدة، بالحرص على جمع المعلومات الطبيعية بدراسة جيولوجية المنطقة وظواهرها الجيومورفلوجية، ومصادر المياه القديمة، والغطاء النباتي مما يساعد في وضع خريطة الاستيطان البشري في منطقة الصحراء على مر فترات ماقبل التاريخ وتحديد مايقابلها من تحولات في المناخ . ومن ثم ربط ذلك بتحركات الصيادين ، واستغلالهم لبيئة الصحراء والأودية المجاورة لنهر النيل. أما في المناطق النيلية وفي وادي الكبانية، فقد تركز العمل في الظواهر الطبيعية من أجل مراجعة تسلسل فيضانات النهر القديمة، الذي وضع خلال أعمال حملة إنقاذ آثار النوبة. وقد اتضح نتيجة لهذه الأبحاث ، أن هناك فترة واحدة رئيسية ارتفع فيها النيل ، وتخللتها انخفاضات بسيطة. كما اتضح ايضاً أن نموذج الفيضان الكبير، الذي يعقبه انحسار واضح في مستوى النهر وانتشار الرمال ثم فيضان آخر كبير غير صحيح. وقد أدى هذا الاتجاه الجديد في البحث الجيولوجي ودراسة المواد العضوية المختلفة، إلى معرفة عملية فيضان النهر بدقة أكبر، وعلاقة ذلك بالبيئة المحلية، ومن ثم أثره في حياة الناس وتكيفهم، بالاستفادة من الموارد المتاحة موسمياً. إن الاهتمام بالدراسة المفصلة للظواهر الطبيعة، وعلاقتها بتاريخ نهر النيل، ثم عناصر البيئة، من حيوان ونبات وغيرها، يتضح جلياً في تخصيص ثلاثة أرباع المجلد ، الذي يشتمل على نتائج الدراسة في جنوب مصر ، إلى هذه الموضوعات (Wendorf and Schild 1976) .

وفي وادي الكبانية توجه البحث الميداني أيضاً إلى تطوير تقنيات مناسبة لجمع البقايا النباتية ، التي يصعب الحصول عليها، عادة، في مثل بيئة تلك المنطقة . إضافة إلى عظام الحيوانات البرية الكبيرة والصغيرة، والكميات الكبيرة من عظام الأسماك والطيور . ويمهد البحث المتصل عن المواد العضوية، وعن أحوال البيئة الطبيعية، إلى معرفة أوسع بحياة الناس ومعيشتهم خلال فترة العصر الحجري القديم المتأخر، وتعد هذه فترة مهمة عند النظر في التحولات الحضارية الكبيرة، التي أعقبتها بعد اكتمال عمليات إنتاج القوت في وادي النيل. إن تنوع المعلومات التي جمعتها البعثة الأمريكية المتحدة، يعود في المقام الأول إلى المنهج الإجرائي، الذي اتبعه الباحثون الذين خططوا لمشروع الأبحاث، وهو منهج يعتمد على مبدأ تعدد التخصصات، ودمجها في إطار مشروع بحثي واحد، وذلك أمر يؤثر إيجاباً في نوع المعلومات التي يحصل عليها ، ففي حالة وادي الكبانية، كان عدد الذين اشتركوا في كتابة التقارير العلمية المشار إليها ، نحو عشرين باحثاً متخصصاً في ميادين علمية مختلفة، معظمهم ممن اشترك في العمل الميداني (Wendeorf and Schild 1989:1-8).

فطريقة تكوين الفريق العلمي المتبعة في وادي الكبانية، قل أن يوجد لها مثيل في مكان آخر . ومما يجدر الإشارة إليه، أن هذا الفريق العلمي كان يضم بعض المتخصصين من الوطنيين الذين أبدوا كفاءة عالية في العمل الميداني وفي نشر نتائج أبحاثهم (٤).

ومن الإجراءات المنهجية التي عرفت بها البعثة الأمريكية المتحدة، تصنيف المعثورات الحجرية في الميدان حيث ينتهي العمل فيها بانتهاء الموسم. ويتم ذلك باتباع أدق وسائل التصنيف، التي تتوخى التحري عن أنواع ومصادر الصخور، التي صنعت منها الأدوات، ثم تحديد الأنواع على أساس قائمة من المتغيرات النوعية والشكلية. كذلك تستخدم الأساليب الكمية ، من أجل المقارنة، وكشف مستويات التنوع من شبه واختلاف بين الجاميع المكتشفة ، في كل المواقع. وكان من المتبع وضع نسخة من التقارير الميدانية ، ورسم المخططات ومقاطع الحفريات في مصر ، إضافة إلى المعثورات المكتشفة، وهذا تقليد حميد، نأمل أن تتمكن بلدان أخرى في المنطقة أن تحذو حذوه ، حتى تحفظ موادها الأثرية التي ربما تحتاج إليها أجيال قادمة من الباحثين الآثاريين ، إن هذا الأسلوب الصارم في دقة التوثيق والتسجيل وحفظ المكتشفات، في بلد المنشأ ، يتبعه تقليد آخر متميز ، هو نشر النتائج النهائية في وقت قياسي، وعلى مستوى رفيع يندر أن نجد له شبيها (Wendorf and schild 1980: 1-15) .

وأما عن الأفكار الرئيسة، التي تحكم هذ العملية البحثية الجيدة، فيلاحظ أن البحث يرتكز حول مسألة التاريخ الثقافي، وهي ماتزال الفكرة المسيطرة على مجريات الأمور، ولكن المدخل إليها لم يعد هو تسلسل تقاليد صناعة الأدوات الحجرية فقط ، كما كان الحال في الفترة السابقة ، من أبحاث ماقبل التاريخ في المنطقة. فدراسة أنماط الاستيطان خلال المرحلة الأشولية ومابعدها، ينظر إليه من خلال التكيف على بيئات الصحراء الغربية ، والبيئة النيلية، والأودية المجاورة للنهر فالتطور الثقافي -إذن- كان رهيناً بعمليات التكيّف وحركة المؤثرات المتبادلة، بين المجموعات السكانية وتحركاتها في المنطقة. وظل موضوع التطور المحلي غالباً، في تفسير المخلفات الأثرية في منطقة وادي الكبانية ، عندما ظن الباحثون لفترة من الوقت، أن التجارب المحلية ، في استغلال الحبوب البرية، مثل الشعير والقمح بصورة مكثفة منذ ١٥,٠٠٠ ق.م ، قد أدى إلى تدجينها وزراعتها تلقائياً في وقت مبكر ، ربما قبل أي مكان آخر في العالم القديم. ولكن الجهد العلمي الذي بذله الباحثون في المراجعة، وإعادة الفحص للحبوب المتفحمة، التي أعتمد عليها سابقاً في هذا الافتراض، أوضح جلياً أنها حبوب حديثة العهد ولاعلاقة لها بالمحيط الأثري، الذي وجدت فيه. لقد أعادت هذه المراجعة فكرة المؤثرات الخارجية، مرة أخرى، إلى المقدمة كأحد عوامل التغير الحضاري (Pocit : 7) .

ولا يكتمل استعراض دراسات ماقبل التاريخ، في مصر، دون ذكر الأعمال المهمة التي تقوم بها بعثات علمية أخرى، أوروبية ومحلية. وفي هذا الخصوص تقع الأبحاث التي يقوم بها فكري حسن وفريقه العلمي ، في صدارة هذه الأعمال. فقد عمل لسنوات طويلة منذ ارتباطه بالبعثة الأمريكية المتحدة، في بداية أعمالها، ثم أعماله الميدانية المستمرة في جنوب مصر، والفيوم وسيوه. وتتركز أبحاثه حول ثلاثة محاور، تشمل: البيئة القديمة وتاريخ نهر النيل ، ومجتمعات انتاج القوت والتحولات الثقافية التي صحبته، وأخيراً مجتمعات ماقبل الأسرات وظهور الدولة المركزية (Hassan 1997) . وقد استفاد في مجمل أبحاثه من كل مايتيحه علم الآثار الحديث من مناهج علمية، استطاع من خلالها تقديم اطروحات فكرية، تناولها غيره من العلماء بالنقد والتحليل. ومن جهة أخرى، تمكن من تأويل المعرفة الآثارية عن البيئة القديمة، وعمليات التطور الثقافي ونقلها إلى آفاق الدراسات المستقبلية الحديثة، حول البيئة والاجتماع والسياسة (Hassan 1992) .

وفي السودان، كان لحملة إنقاذ آثار النوبة الأثر نفسه تقريبا ، في دفع مسيرة الأبحاث حول فترة ماقبل التاريخ داخل البلاد. وقد كانت منطقة النيل الأوسط حول الخرطوم، أكثر الأماكن حظاً في التنقيب الأثري، الذي تركز في مواقع مهمة من العصر الحجري الحديث، بدأته بعثات أوروبية منذ أوائل

السبعينات. واستمر العمل فيها لمدة طويلة، باعتبار أنها مواقع مهمة خاصة أن بعضها من نوع موقعي حضارة الخرطوم القديمة والشهيناب الشهيرين . وقد أدى حصر العمل في منطقة الخرطوم، فيما عدا حالات قليلة، إلى إغفال المناطق الداخلية من النيل الأوسط، بمكن تعميمه على بقية أنحاء السودان (Mohamed-Ali 1987: 125) . وعندما بدأ العمل الآثاري في هذه المناطق لاحقاً ، اتضح مدى التنوع الثقافي الذي شهدته المنطقة خلال العصر الحجري الحديث ومابعده مباشرة .

وقد قامت بالتنقيب المستمر لعدة سنوات ، في منطقة الخرطوم وما جاورها، فرق أبحاث أوروبية من إيطاليا وبولندا والنروي وفرنسا. وكذلك جامعة الخرطوم ، التي أجرى فريقها حفريات محدودة في الشمال من أم درمان، وقد انصب جهد هذه الفرق أولاً على تحديد العلاقة التطورية بين حضارة الخرطوم المبكرة والشهيناب، كما وصفها آركل من قبل. وبعد ذلك اتجهت البحوث للنظر في التغيرات الحضارية، التي أدى إليها التحول إلى إنتاج القوت. متمثلاً في زراعة الذرة وغيره من حبوب وتدجين الحيوانات، مثل الأبقار والأغنام والماعز، وأماكن حدوث هذه الابتكارات.

وقد أجريت التنقيبات الميدانية ودراسة المعثورات، بأحدث ماتوافر من مناهج في علم الآثار مما أحدث نقلة نوعية في المعلومات، الدالة على قدرات السكان وتمكنهم من ابتكار طرق جديدة، في استغلال البيئة الطبيعية. وقد نالت قضايا مثل أصل الزراعة، واستئناس الأبقار، أثرهما في حياة الناس. وتشكيلات انظمة الاقتصاد المعيشي، حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين. كذلك استمرت دراسة الفخار في مكانها المتقدم، من حيث تحديد تتابع أنواعه زمنياً، وتصنيف زخارفه، والتعرف على معانيها. وكانت أساليب التصنيف التقليدية هي المتبعة، إلا أنه تجدر الإشارة إلى الدراسات، التي قامت على التحليل الفيزيائي والكيميائي للفخار، وهي قد أضافت معلومات جديدة ومهمة. فالصفة العامة إذن، كانت تحليل المعثورات، ومتابعة أصولها، وتطور أشكالها وأنواعها، عبر الزمن، ومدى الاعتماد عليها كمؤشرات للاتصال الحضاري بين السكان في المنطقة . ومثل هذا العمل أمر مطلوب، بطبيعة الحال في الدراسات الموجهة نحو التأصيل التاريخي الثقافي وإبراز ملامحه. ومن جانب آخر، استطاع الباحثون في هذه المنطقة طرق موضوعات تتعلق بأنماط الاقتصاد المعيشي، وحياة الناس الاجتماعية . فحللت المواد العضوية نباتية وحيوانية وسمكية، كما أجريت دراسات عن ديموغرافيا السكان ، وعادات دفن الموتى والفنون المختلفة (Krzyzaniak 1991).

وبرزت إلى السطح أسئلة جديدة عن التحول الحضاري من مجتمع الصيد والجمع، إلى الزراعة وحياة المستوطنات المستقرة ، ثم ظهور مجموعات الرعي، وما تبع ذلك من نمط جديد في الحياة . جعل من قضية العلاقة بين حوض النهر والسهول الواسعة، في وسط البلاد وغربها وشرقها موضوعاً يستحق الدراسة. وهناك أيضاً مسألة الانقطاع في الاستيطان بالمنطقة، إذ لم تكتشف مواقع ذات عدد مناسب لملئ الفترة الزمنية، بين آخر تاريخ لموقع الشهيناب، وبداية فترة حضارة مروي. وأخيراً، هناك السؤال عن أثر تغيرات المناخ على حياة الناس وهل كانت سبباً في تغيرات ثقافية، خاصة ونحن نتحدث عن منطقة هامشية مناخياً ؟ ومن الملاحظ في هذه الأبحاث الميدانية، أنها لم تهتم بالبحث عن مواقع العصر الحجري القديم المتأخر، التي يتوقع أن تمدنا بمعلومات أولية عن مجتمعات إنتاج القوت، آنفة الذكر. ومهما يكن من أمر، فإن المسوحات التي أجريت حول منطقة الخرطوم لم تكشف إلا عن عدد قليل من أنواع هذه المواقع ، وربما كان ذلك لأسباب عدة، منها ضياع هذه المواقع بفعل العوامل الطبيعية أو أنها غير موجودة أصلاً. هذه بعض الأسئلة التي أثيرت ولم تتوفر إجابة عنها، وكانت ضمن موضوعات مشاريع الأبحاث الجديدة، التي أجريت بعيداً عن ضفتي نهر النيل.

لم تكن نتائج بحوث العصر الحجري الحديث في

النيل الأوسط، كلها قائمة على توجه التاريخ الثقافي وحده. فقد طورت راندي هالاند، وفريق البحث الذي رأسته مثل، أطروحة مختلفة، اقتضى تطبيقها منهجاً مختلفاً أيضاً. وقدأجرت تنقيبات ومسوحات آثارية عدداً من السنين، في مناطق متباعدة. فهي قد نقبت في عدد من المواقع المهمة حول الخرطوم، ثم أخرى في رَبَك في أواسط السودان، وأخيراً على نهر عطبرة، بالقرب من مدينة الدامر. ثم جمعت معلومات اثنوغرافية، من غرب وشرق السودان، أفادت منها في دراستها. تتبنى هالاند منهجاً صريحاً يتوافق مع أطروحات التيار الحديث في علم الآثار، وتسعى من خلاله لتكوين فرضيات حول الظاهرة الثقافية، تعمل على رفضها أو قبولها، بالبحث في شواهد أثرية مستقلة. وقد كان في مقدم اهتماماتها، كيفية تحول المجتمع في منطقة النيل الأوسط، من الصيد والجمع إلى الحياة المستقرة، وكيف ينعكس ذلك في الثقافة المادية. ويقوم المنهج الإجرائي، الذي اتبعته، على دراسة البيئة الطبيعية كإطار تنظر من خلاله للمعثورات الأثرية في علاقاتها الزمانية والمكانية، ثم الاستفادة من المعلومات الاثنوغرافية التي سعت إلى جمعها من مناطق مختلفة من البلاد. وأخيراً الإطار النظري المطلوب، لتفسير التنوع في الثقافة المادية. كما تهتم أيضاً بتصنيف المواقع الأثرية، وماوجد فيها من إطارها الايكولوجي، على أساس وظيفي. وقد مكنها هذا التناول، من طرح نموذج لحركة تنقل الناس الموسمية، لاستغلال موارد النهر من مستوطنات شبه دائمة بعيدة عنه نسبياً، تختلف في أحجامها ومحتوياتها. كما ناقشت عملية الانتقال النهائية لاقتصاد الرعي الأمر الذي ربما يفسر ندرة المواقع الأثرية، في أواخر العصر الحجر الحديث في المنطقة (Haaland 1983).

ومن الموضوعات الجديدة، التي طرحتها راندي هالاند، دور المرأة في حياة المجتمعات المتنقلة، عندما بدأت تتحول إلى حياة الاستقرار. فقد ناقشت طبيعة الأعمال التي يمكن أن تقوم بها المرأة بسبب الصفات الجسمية، منطلقة من المؤشرات الاثنوغرافية، مثل إعداد الطعام، وعمل الأدوات المطلوبة لتجهيزه، وعمليات الجمع والالتقاط ... الخ. ومن الأدلة الأثرية من مواقع نهر عطبرة، اتضح لها أن الاستقرار بدأ قبل أن تتحقق عملية الزراعة الكاملة. فالجمع المكثف للحبوب والزراعة الأولية قبل التدجين الكامل للذرة، ثم الصيد المكثف للأسماك، أدى إلى استقرار نسبي في المواقع القريبة من النهر، ولعب الفخار دوراً مهماً في هذه العملية، إذ استعمل لحفظ الحبوب وغيرها من مواد. وترى الباحثة أن للفخار صلة رمزية بالمرأة فالإناء للحفظ كما المرأة للحمل، وتوفير الغذاء من جسمها للطفل، وللأواني الفخارية معان طقوسية تتعلق بالموت والولادة، يمكن البحث عن مثيلاتها عند الإنسان، وتحديداً المرأة، وزخرفة الفخار يمكن مقارنتها بعلامات التزيين المختلفة على جسد المرأة ووجهها. وتقول راندي هالاند إن هذه أمثلة انثروبولوجية فيها إيحاءات اجتماعية، يمكن أن يتخيلها الباحث عند تحليله للظاهرة الأثرية. وهكذا يبدو أن توجه الباحثة يركز على الجوانب الاجتماعية والسلوكية للأفراد، في مجتمعات ماقبل التاريخ، وذلك في محاولة منها للاقتراب أكثر نحو معرفة حياة الناس، وأنظمتهم الاجتماعية والعقائدية (Haaland 1997).

وتشير مجمل الأبحاث، التي قدمت في المؤتمر العالمي الخامس لدراسات ما قبل التاريخ المتأخر في شمال شرق أفريقيا، الذي عقد ببوزنان (بولندا) في عام ١٩٩٧م، إلى التقدم الكبير الذي حدث في البحوث الموجهة نحو معرفة العلاقات الثقافية بين المجتمعات الزراعية التي تأسست في مصر والسودان وشمال أفريقيا وشرقها، وربما أبعد من ذلك. كذلك تجدر الإشارة الى المعلومات الجديدة، عن التطورات الاجتماعية التي حدثت بعد عام ٤٠٠٠ ق.م، خاصة ما يستشف عنها من عادات للدفن والعبادة، وفنون النحت والرسم (Hassan 1998B: 92).

والنوع الآخر من الأعمال الميدانية في هذه المرحلة من تاريخ البحث يتمثل في المسوحات الآثارية الكبيرة،

التي اختير لها مناطق واسعة. وقد خطط لمعظم هذه المسوحات على أمل الحصول على إجابات لأسئلة ظلت مطروحة لوقت طويل. وكانت الخطوة الأولى هي الخروج من منطقة النيل، والتوجه لتغطية مناطق في شرق وغرب السودان ، وهي مناطق تعد جغرافياً وحضارياً جزءاً من وادي النيل، وإن كانت بعيدة عن السهل الفيضي للنهر، الذي تركزت فيه أعمال البحث. ويأتي في مقدمة هذ المسوحات، تلك التي أجريت في البطانة من كهف شق الدود بالقرب من النقعة على بعد ٥٠ كم شرق الخرطوم، حتى منطقة خشم القرب في شرق السودان. وقد شارك في هذا المسح مجموعة من باحثي جامعة الخرطوم وجامعة مثودست الجنوبية في دالاس . ثم المسح الذي قام به الفريق الإيطالي في دلتا نهر القاش بمنطقة كسلا في شرق السودان، حتى الحدود الشرقية مع ارتريا . وأخيراً المسح الأثري في شمال غرب السودان، وبتركيز على منطقة وادي هور، الذي قام به فريق ألماني. وقد شهدت هذه الفترة أيضاً، نشاطاً ملموساً من نوع آخر، يتمثل في عمليات المسح والتنقيب، التي تسببها عمليات بناء الطرق والسدود الجديدة، وهي عمليات إنقاذية للآثار تشرف عليها الإدارة العامة للآثار، مستعينة ببعض فرق البحث الأجنبية والمحلية. وقد توخّت المسوحات الكبيرة مناهج وإجراءات ميدانية حديثة، وحدد القائمون عليها أهداف المسح وكيفية تنفيذه، ومناقشة ذلك قبل بداية العمل. فمشروع البطانة الأثري، على سبيل المثال خطط له ليكون مشروعاً طويل المدى، نسبة لأهمية المنطقة، التي تتوسط بين نهرالنيل والمرتفعات الأثيوبية. وكذلك لما وجد فيها من قبل من آثار تعود لفترة ماقبل التاريخ، وفترة دولة مروي القديمة. وقد حدد الباحثون الرئيسيون في المشروع أهدافهم، من خلال مناقشتهم لما هو معروف عن منطقة النيل الأوسط والسودان، بصفة عامة. وتتلخص الأهداف الأولية في تحديد أبعاد الاستيطان البشري في منطقة البحث ، وعلاقاتها بالأحوال البيئية. كذلك رصد تسلسل مراحل التطور الثقافي والتداخل الثقافي الإقليمي، وطبيعة المؤثرات الخارجية . "وميكنزمات" آليات التغير الثقافي. وأخيراً الدور الذي مثلته هذه المنطقة في التاريخ الثقافي للإقليم عموماً إضافة للأسئلة التي تركتها الأعمال البحثية التي أجريت في وادي النيل الأوسط دون إجابة مقنعة.

وقد كان الاستعداد الميداني لهذا المشروع مثالاً يحتذى في السودان. وعلى الرغم من أنه لم يستمر لأكثر من سنتين، إلا أن نتائج الدراسات كانت تؤكد أهمية التخطيط لمثل هذه المشاريع وجدواها وكان من ضمن النتائج التي توصل إليها فريق البحث، تحديد معالم ثقافات جديدة في العصور الحجرية المتأخرة، لم تكن معروفة من قبل كما وفرت معلومات قيمة تساعد في مراجعة الكثير من قناعات الباحثين، عن فترة ماقبل التاريخ في منطقة وادي النيل الأوسط (العباس محمد على ويوسف الأمين : ١٩٩٢). وقد وصف الباحثون الخطوات العملية، التي اتخذوها في الميدان لتنفيذ المسح، الذي غطى ما مساحته أكثر من ألفي كلم مربع. كما ذكروا طبيعة المشاكل التي واجهتهم في الميدان ، مما قد يفيد الآخرين الذي يودون القيام بأعمال مشابهة. فالمساحة الشاسعة، التي غطاها هذا المسح وتلك التي غطاها المشروع الإيطالي في منطقة كسلا ، سمحا معاً بتناول قضايا علمية، كان يصعب تناولها بغير ذلك الأسلوب. ومن أهم هذه الموضوعات مثلاً، قضية التغير الثقافي عندما حدث الانتقال من اقتصاد المجتمعات الزراعية المستقرة، التي وجدت في المنطقة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، إلى اقتصاد الرعي ومجتمعاته المتنقلة. وقد كان الهدف من هذه الحالة، اختبار الفرضية التي تقول بتأثير الأحوال البيئية والايكولوجية في هذا التغيير. وقد تم تناول هذا الأمر عن طريق دراسة أنماط توزيع المواقع ، في القطاعات البيئية المختلفة في منطقة المسح، ثم تحليل مكونات الأرض المتعلقة بالزراعة والغطاء النباتي الطبيعي. وقد اتضح أن التحول الثقافي المذكور ، حدث دون أن يصاحبه تحول

يذكر في المناخ والبيئة فاتضح عندئذ ضرورة البحث عن أسباب أخرى (Sadr 1991: 52-71) .

وفي هذا السياق لابد أن يشار الى أن كثيراً من مواقع العصور الحجرية في السودان، توجد موادها الأثرية فقط على السطح، مما يسبب صعوبات عملية في دراستها التفصيلية. فمن المعروف أن مثل هذه المواقع تخلو ، عادة من المواد العضوية التي تعين الباحث في معرفة جوانب الاقتصاد المعيشي، والعلاقة بين أماكن المواقع وأنظمة الموارد الطبيعية المختلفة ، في ذلك الوقت. وعلى الرغم من ذلك، لم تكن دراسة مثل هذه المواقع غير مجدية، فقد عمل الاثاريون على ابتداع مناهج عمل ميدانية، تساعد علي جمع معلومات مفيدة عن أنماط الاستيطان القديمة ،والخصائص الثقافية (Elamin 1992: 68-69).

إن الذي جعل هذا الأمر ممكناً، كما جعل غيره من النتائج المهمة، التي حققتها أبحاث ماقبل التاريخ، في وادي النيل في هذه المرحلة، هو تطبيقات المسح والتنقيب الآثاري الحديثة، والاستفادة من تقنيات التوثيق الالية، كالحاسوب وأنظمة المعلومات الجغرافية في رسم الخرائط واستعمالات الرادار، وتقنيات الاستشعار عن بعد. إن متابعة هذه التقنيات الحديثة، واستخدامها في منطقة وادي النيل، سيؤدي حتماً إلى تغيرات نوعية في مستوى الأبحاث الميدانية، والمعلومات التي يمكن الحصول عليها. وكما أشير في استعراض أوراق مؤتمر بوزنان سابق الذكر ، فإن هذا التوجه سينقل أبحاث ماقبل التاريخ ، إلى حيز البحث في السمات والمؤشرات الوظائفية والرمزية والمعرفية للمعثورات ، ليكمل بها التحليل القائم على أسس التصنيف الأثاري المعهود. كما أن موضوعات العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الأقاليم، سوف تتجاوز موضوع ترتيب المعثورات في حلقات تطورية، الشئ الذي سيطرأ على البحث الآثاري لفترة طويلة (Hassan 1998b: 90-91) .

في ختام هذا يود الباحث أن يبدي أهم الملاحظات العامة، التي أبرزها هذا الاستعراض موجزة في الآتي :

١- أن التقسيم الثلاثي الذي اقترحته لتاريخ أبحاث ماقبل التاريخ، في وادي النيل، ليس نموذجاً متماسكاً تماماً أو صارماً، بل هو مقترح مبدئي يفي بأغراض الاستكشاف الأولية، لاتجاهات البحث المنهجية والنظرية. وقد حاولت أن أنظر من خلاله لتاريخ الأبحاث في هذه الفترة ، وبذلك تيسر تحديد خصائص كل مرحلة بدرجة تساعد في فهم مسيرة البحث ومستقبله. ومهما توفر له من فعالية مجدية، فإنه سيحتاج للتطوير سواء بالإضافة أو التعديل بعد حين.

٢- من الملاحظ أن المرحلتين الأخيرتين، وهما تمثلان أهم ماحدث في تاريخ الأبحاث، تمتازان تقريباً بالإطار النظري نفسه، ماعدا حالات محدودة، هذا الإطار النظري تمثله أطروحات المدرسة التاريخية -الثقافية، وذلك بغض النظر عن قضية البحث المطروحة، وهو -كما ذكرنا - توجه يعتمد أساساً على تصنيف المعثورات وتحليلها، ووضعها في جداول إحصائية، تعكس أنماط التنوع التقني والنوعي، الذي يؤخذ، عادة، على أنه يمثل تنوعاً ثقافياً. وفي الوقت الذي طرأت فيه مواكبة ملموسة للأبحاث العالمية، بالاستفادة من الوسائل التقنية الحديثة، سواء في العمل الميداني أو في تحليل المواد الأثرية، خاصة في المرحلة الثانية، فإن الجانب النظري ظل خالياً من الجدل الفلسفي، ومن الأطروحات الفكرية الحديثة، التي أصبحت علامة بارزة في دراسات ماقبل التاريخ في العالم .

٣- ويتصل بالنقطة السابقة قلة الاهتمام بنتائج الأبحاث الأنثروبولوجية، والاستفادة منها في دراسات ماقبل التاريخ، خاصة أن الاتصال بين العلمين أمر شائع، منذ فترة ليست بالقصيرة، فالمنهج الإثنواركيولوجي، مثلاً، غير مضمن في مشاريع الأبحاث في وادي النيل ربما ما عدا حالة أو حالتين. وهو أمر ملفت للنظر إذا قارناه بما يحدث في مثل هذه الأبحاث في أفريقيا جنوب الصحراء، وهذا أمر بطبيعة الحال، يحتاج الى معالجة إيجابية،

في الأبحاث المستقبلية.

٤- أن جميع مشاريع الأبحاث الميدانية المهمة، ماعدا حالات نادرة تقوم بها فرق أبحاث أجنبية بالكامل، أو يسهم فيها عدد قليل من الوطنيين، يمثلون عادة إدارات الآثار الرسمية. ومن ثم تلاحظ محدودية مساهمة المتخصصين عموماً في البحوث الميدانية، والدراسات المنشورة. إن الذين تخصصوا من الوطنيين في علوم ماقبل التاريخ، وعددهم قليل جداً مقارنة بغيرهم لم يتمكنوا من اختراق سيطرة العنصر الأجنبي في هذه الدراسات بصورة مؤثرة. وليس في هذه الملاحظة ما يوحي بنداء موجه لحجب مجهودات الأجانب أو تقليص نشاطهم خاصة ونحن مدينون لهم بالكثير، لكن فيه دعوة لنا أن ننظر بجدية في هذه المشكلة، ونعمل على معالجتها .

ويبدو لي أن هذا الأمر يعود إلى عدة أسباب منها :

أ- إن دراسات ماقبل التاريخ لم تجذب عدداً معقولاً من الباحثين الوطنيين، مقارنة بالتخصصات الأخرى. وتختلف الدول في مستوى الاهتمام بتأهيل العدد المناسب من المتخصصين. كما يلاحظ أن من تخصص منهم واجه عقبات موضوعية غير متوقعة، تجعلهم يتركون مواقع عملهم. إن وجود آثاريين في هذا الحقل بعدد مناسب من مصر والسودان، سوف يؤثر حتماً على سير عمليات تطوير الأبحاث، وتقديم الأولويات فيها على ما عداها.

ب- مازال ماقبل التاريخ موضوعاً بعيداً عن أهتمام الأكاديميين، لأن بعض الذين يعملون في مجال الآثار يعدون دراسة ماقبل التاريخ نوعاً من الترف. ولا تتوفر الإمكانيات المادية الكافية للآثاريين الوطنيين للقيام بأبحاثهم الميدانية الخاصة ، أو مقابلة تكاليف التحليل العلمي للمعثورات، ونشر نتائج الأبحاث. وهناك صعوبة في الاشتراك في الندوات، والمؤتمرات العلمية العالمية، وشراء المطبوعات الحديثة. وقد أشار أكثر من كاتب إلى أزمة الإمكانات المادية في بلدان العالم الثالث عموماً، وتأثيرها السلبي في تأهيل وتطوير قدرات الآثاريين، الذين ينتمون إلى هذه البلدان.

ج- إن عدم رواج دراسات ماقبل التاريخ وسط طلاب علم الآثار والأكاديميين عموماً، يرد جزئياً إلى طبيعة المادة الأثرية نفسها، التي تبدو لكثيرين منهم غريبة ومعقدة في محتوياتها. كذلك يشكل امتداد البعد الزمني السحيق لفترة ماقبل التاريخ صعوبة موضوعية لبعضهم، أمام تقدير أهمية المعلومات، التي تذكر عادة عن حياة الناس في ذلك التاريخ البعيد.

إن الخطوة الأولى في نظري، نحو تحسين أوضاع أبحاث فترة ماقبل التاريخ، التي يقوم بها آثاريون من قطري وادي النيل، هو التوسع في إدخال علوم ماقبل التاريخ الحديثة، ضمن مقررات البكالوريوس في أقسام الآثار بالجامعات، وتوفير الكتاب الجامعي، الذي يفي بالشروط الحديثة. ولإكمال العملية، لابد من إعداد برامج الدراسات العليا المناسبة، لتأهيل المتخصصين بمستويات رفيعة، حتى يتمكنوا من المساهمة مع غيرهم في تطوير هذا المجال من البحث الاثاري ونقله لآفاق رحبة، ينتظم فيها مع ما يماثله في بلدان

د. يوسف مختار الأمين - قسم الآثار والمتاحف -كلية الآداب - جامعة الملك سعود - ص.ب ٢٤٥٦ - الرياض ١١٤٥١ المملكة العربية السعودية.

الهوامش :

(١) وفي هذا الاتجاه نفسه يؤكد عدد من الفلاسفة المحدثين ، مثل هابر ماس وهيربرت ماركوس، في نقدهم للفلسفة الوضعية على أن الظروف الاجتماعية هي المؤثرة في نظرتنا للمادة أو المعلومات الأولية موضوع الدراسة ، وكذلك في طريقة تفسيرنا لها .

(٢) يذكر هنا على سبيل المثال G. Daniel . أحد أشهر المتخصصين في الكتابة عن تاريخ علم الآثار، إذ ألّف العديد من الكتب الرصينة وعشرات المقالات في الموضوع. ومن أهم كتبه في تاريخ علم الآثار .

A hundred and fifty years of Archaeology. London, Duckworth. 1975.

(٣) نشر كون تفاصيل أطروحته في العام ١٩٦٢ بعنوان :

The Structure of Scientific Revolutions.

وقد وجدت طريقها إلى أدبيات علم الآثار الحديث ، خلال المراجعات الفكرية والمنهجية فيه، التي بلغت أوجها في أوائل السبعينات.

(٤) من الأسماء البارزة في هذا الإطار من المصريين : رشدي سعيد ، وفكري حسن ، وبهي العيسوي، ونبيل الحديدي ، والحناوي ... الخ.

المراجع :

أولاً : المراجع العربية :

محمد علي، العباس سيد أحمد ويوسف مختار الأمين ١٩٩٢ م ."مشروع البطانة الأثري في شرق السودان: النتائج والدلالات" **دراسات في الآثار -الكتاب الأول**. قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، الرياض ،ص ص ٦٥ - ٩٩.

كون، توماس ١٩٩٢. **بنية الثورات العلمية** . سلسلة عالم المعرفة ١٦٨، الكويت، ترجمة شوقي جلال.

ثانياً : المراجع غير العربية :

Binford, L. 1966. "A preliminary Analysis of Functional Variability in the Mousterian of Levallois Facies" **American Anthropologist**, (2): 238-295.

Caton-Thompson, G. 1946. "The Levalloisian Industries of Egypt" **Proceedings of the Prehistoric Society** 12: 57-120.

Clark, J. D. 1987. "Fred Wendorf : A critical Assessment of his career in and contribution of North African Prehistory" In : Angela Close (ed.) **Prehistory of Arid north Africa. Essays in Honor of Fred Wendorf**. pp. 1-11.

Adams, W. Y. 1973. "Strategy for Archaeological Salvage" **Cambridge Monograph Series** vol. 17 :826-835.

Adams, W. Y. 1981. "Paradigms in Sudan Archaeology" **Africa Today**, 28 (2): 15-24.

Arkell, A. J. 1949. **Early Khartoum**. Oxford University Press.

Arkell, A. J. 1953. **Shaheinab**. Oxford University Press.

Arkell, A. J. 1975. **The Prehistory of the Nile Valley**. Leidon

El-amin, Y. M. 1981. **The later Pleistocene Cultural Adaptations in Sudanese Nubia,**
B. A. R. Internationl Series 114. Oxford.

El-amin, Y. M. 1992. "Archaeological Survey in the Area of Shaqadud Cave, Central Sudan" **Ages**, 7 (2): 43-69.

Haaland, R. 1983. **Migratory Herdsmen and Cultivating Women**. The Structure of Neolithec Seasonal Adaptation in the Khartoum Nile Environment. University of Bergen Press.

Haaland, R. 1997. "Emergence of Sedentism: new ways of living, new ways of symbolizing" **Antiquity**, 71 (272): 374-385.

Hassan, F. 1992. "The Ecological Consequences of Evolutionary Cultural Transformations : The case of Egypt and Reflections on Global Issues". **International Research center for Japanese Studies Int. Symposium No. 6**; Nature and Humankind in the Age of Environmental crisis :29-44.

Hassan, F. 1997. "The dynamics of a riverine civilization: a geoarchaeological perspective on the Nile Valley, Egypt" **World Archaeology**, 29 (1): 51-74.

Hassan, F. 1998a. "Memorabilia. Archaeological Materiality and National Identity in Egypt" In : Stephen Shennan(ed), **Archaeology Under Fire. Nationalism, Politics and Heritage in the Eastern Mediterranean and Middle East**, Lynn Meskell,pp. 200-261.

Hassan, F. 1998b. "The Archaeology of North Africa at Kiekrz 1997," **African Archaeological Review**, 15 (1) : 85-93.

Krzyzaniak, L. 1991. "Early Farming in the Middle Nile Basin: recent discoveries at Kadero, Central Sudan", **Antiquity**, 65 (248) : 515-532.

Marks, A. E.1968. "The Mousterian Industries of Nubia", In : Wendorf, F. (ed.) **The Prehistory of Nubia,** vol. 1, SMU Press, Dallas, pp. 194-314.

Mohammed Ali, A. S. 1987. "The Neolithic of Central Sudan : A reconsideration". In : Angela Close (ed.) **Prehistory of Arid North Africa**, pp. 123-136.

Renfrew, C. and Bahn, P. 1991. **Archaeology, Methods and Practice**. Thames and Hudson, London.

Sadr, K. 1991. **The Development of Nomadism in Ancient Northeast Africa.** Upp, Philadelphia.

Sandford, K. S. and Arkell, W. J. 1933. **Paleolithic Man and the Nile Valley in Nubia and Upper Egypt**, University of Chicago Oriental Inst. Publication, Vol. 17.

Van Peer, P. 1998. "The Nile Corridor and the Out-of-Africa Model. An Examination of the Archaeological Record" **Current Anthropology,** 39: S115-S140.

Wendorf, F. (ed.) 1968a. **The Prehistory of Nubia**. vol.1. SMU Press, Dallas.

Wendorf, F. (ed.) 1968b. **The Prehistory of Nubia**. vol.2. SMU Press, Dallas.

Wendorf, F. and Schild, R. 1976. **Prehistory of the Nile Valley .** Academic Press, New York.

Wendorf, F. 1980. **The Prehistory of Eastern Sahara.** Academic Press, New York.

Wendorf, (Assemblers) 1989. **The Prehistory of Wadi Kubbaniya**, vol. 2. SMU Press, Dallas.

Trigger, B. 1989. **A history of Archaeological Thought**. Cambridge University Press.